

المؤرخ ابو المحاسن يحيى بن علي الشهير بابن زريق (٤٤٢-٥٠٩هـ/١٠٥١-١١١٥م) وكتابه في التاريخ دراسة في النصوص التاريخية الشامية الأولى المعاصرة للحملة الفرنجية الصليبية الأولى (٤٩٠هـ/١٠٩٧م-٤٩٢هـ/١٠٩٩م)

عصام مصطفى عبد الهادي عقلة *

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة البحث في شخصية مؤرخ شامي هو يحيى ابن زريق، وكتابه في التاريخ، وتبيان أحواله الشخصية، وأسرته، وثقافته، ومحاولة التعرف إلى كتابه من خلال النتف الباقية في المصادر اللاحقة عليه، ودراسها لمعرفة النطاق الزمني والجغرافي لكتابه، والقضايا التي ناقشها، وموارده، ومنهجه، وقيمة كتابه للدراسات الشامية عموماً، وللدراسات الفرنجية الصليبية خصوصاً، ومدى الإضافة التي قدمها لتأريخ الفرنجة الصليبيين في بلاد الشام.

الكلمات الدالة: ابن زريق، تأريخ التاريخ، الفرنجة، بلاد الشام.

المقدمة

اشتهرت منطقة شمال بلاد الشام (حلب وكورها) في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، والنصف الأول من القرن السادس الهجري/ النصف الثاني من القرن الحادي عشر، والنصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي بظهور مجموعة كبيرة من العلماء العرب المسلمين فيها، الذين أظهروا اهتماماً لافتاً بالتاريخ، فصنفوا فيه مجموعة من الكتب التاريخية والذبول — التي لم يصل إلينا للأسف الشديد معظمها، بل وصل إلينا نقول عنها في مصادر أخرى — سواء في حلب حيث ظهر الجبريني^(١)، وابن أبي جرادة^(٢)، وابن اللعيبة^(٣)،

* قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث ٢٩/٤/٢٠١٤م، وتاريخ قبوله للنشر ١٩/٦/٢٠١٤م.

١. مؤرخ حلبى توفي سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م لم يذكره أحد سوى المؤرخ العظيمي، وقدمه على أنه جده لأمه، وأنه صنف تعليقاً تاريخياً أنهاء بداية سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، ثم عمل له تكملة إلى سنة وفاته ٥٠٤هـ/١١١٠م، انظر: العظيمي، محمد بن علي الحلبي (ت ٥٥٦هـ/١١٦١م)، تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، د.ن، دمشق، ١٩٨٤م، ص ١٤٧.

٢. أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي جرادة العقيلي الحلبي (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م) صنف كتاب تاريخ ملوك حلب. انظر عنه: السمعاني، عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٣هـ/١١٦٦م)، التحبير في المعجم الكبير، تحقيق منيرة ناجي سالم، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٥م، ص ٥٦٩-٥٧٠، Cahen, Claude, La syrie Du Nord, Institut Francais De Dams, Paris, 1940, P.41، السيد الباز العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ١٩٣؛ شاكر مصطفى، مدرسة الشام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده، بحث منشور في كتاب الاحتفال بمرور تسعمائة عام على ولادة ابن عساكر، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٧٩م، ص ٤٠١.

٣. ابن اللعيبة، عبد المنعم بن الحسن، أبو الفضل الحلبي، (ت بعد ٥١٩هـ/١١٢٥م) صنف مجموعاً تاريخياً. انظر عنه: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق (٨٠ج)، تحقيق محب الدين

والعظيمي^(٤)، أو في مَعَرَّة النُّعْمَان^(٥) حيث ظهر أكثر من مؤرخ أهمهم: ابن المَهْدَب^(٦)، وابن أبي حُصَيْن^(٧)، وابن زُرَيْق، أو في الأَثَارِب^(٨) حيث برع حَمْدَان الأَثَارِبِي^(٩)، أو في شَيْزُر^(١٠) وبرز فيها حكامها من آل مُنْقَذ^(١١).

إن هذا الاهتمام اللافت في شمال بلاد الشام بالتأريخ يعود لأسباب عديدة، أهمها:
أولاً: الاستقرار السياسي النسبي لإمارة حلب المرداسية^(١٢) (٤١٥-٤٧٢هـ/١٠٢٤-١٠٧٩م) وازدهارها التجاري^(١٣)، وتحول حلب وكورها بسبب ذلك إلى مركز بلاد الشام قاطبة (سياسياً،

- العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ج٣٧، ص١٨٤.
٤. توفي سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م، انظر: مقدمة تحقيق تاريخ حلب للعظيمي، ص ٢٦-٣١.
٥. معرة النعمان: مدينة كبيرة مشهورة من أعمال حمص، تقع بين حلب وحماء. انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/١١٢٨م)، معجم البلدان ٥، تحقيق مزيد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ج ٥، ص ١٨٢. وهي الآن مدينة كبيرة في الجمهورية العربية السورية، تقع في جبل الزاوية في محافظة إدلب. انظر: العماد مصطفى طلاس (مشرف)، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ٦، ج، مركز الدراسات العسكرية، دمشق، ١٩٩٢، ج ٥، ص ٣٠٧.
٦. أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر المعري (ت في حدود ٤٩٠هـ/١٠٩٦م) صنف تاريخاً على السنين أكمل به تاريخ جده علي بن المهذب (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م). انظر: شاكِر مصطفى، مدرسة الشام التاريخية، ص ٣٢٩-٣٥٠؛ إحسان عباس، شذرات من كتب مفقودة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٩٣.
٧. عبد الباقي بن عبد الله بن أبي المحاسن التتويحي المعري (ت في بدايات القرن السادس الهجري/بدايات القرن الثاني عشر الميلادي) وهو من معاصري ابن زريق، صنف ذيلاً على تاريخ همام بن المهذب. انظر: شاكِر مصطفى، مدرسة الشام التاريخية، ص ٣٥٠.
٨. الأَثَارِب: قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، خربت في زمن ياقوت، وتحت جبلها قرية تسمى باسمها، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ١١٣؛ وهي من كورة الجزر إحدى كور حلب. انظر ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، (١٠ ج)، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م، ج ١، ص ١٣٣؛ وتعرف الآن باسم الأَثَارِب، وهي بلدة ومركز ناحية تسمى باسمها في سهول حلب الغربية، تتبع منطقة جبل سمعان في محافظة حلب، وتبعد عن حلب ٢٩ كم. انظر: العماد طلاس (مشرف)، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ج ١، ص ٥١.
٩. توفي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م مصنف كتاب سيرة الإفرنج. انظر عنه: عصام عقلة ويوسف بني ياسين، المؤرخ حمدان الأَثَارِبِي (٤٦٠-٥٤٢هـ/١٠٦٨-١١٤٧م) وكتابه سيرة الإفرنج الخارجيين إلى بلاد الإسلام، بحث منشور ضمن الكتاب التذكاري للدكتور محمد عدنان البخيت، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠١٣م، ص ١٦١-١٩٣.
١٠. شيزر: بلدة تقع على نهر العاصي، وتتبع منطقة محردة إدارياً، وتبعد عن حماة ٣٠ كم، وقلعتها ما تزال آثارها موجودة حتى الآن. انظر: العماد طلاس (مشرف)، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ج ٣، ص ٨٩.
١١. برز فيهم العديد من الذين أرخوا، ولعل أبرزهم علي بن مرشد بن علي بن منقذ (ت ٥٤٥هـ/١١٥٠م) صنف تاريخاً بعنوان البداية والنهاية، وأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) وهو مصنف العديد من المصنفات، ومنقذ بن مرشد بن علي بن منقذ (ت بعد ٥٦٠هـ/١١٦٥م) صنف ذيلاً على تاريخ همام بن غالب. انظر عنهم: شاكِر مصطفى، مدرسة الشام التاريخية، ص ٤٠٠؛ إحسان عباس، شذرات من كتب مفقودة، ص ١١١-١٤٢.
١٢. انظر عن الأسرة المرداسية: ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت ٥٦٦هـ/١٢٦١م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب (٣ ج)، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥٤، ج ١، ص ٢٢٧ إلى نهاية الجزء، ج ٢، ص ١-٧٢.
١٣. انظر: ابن بطلان، المختار بن الحسن بن عبدون (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م)، رحلة ابن بطلان، صنعها وحققها شاكِر

واقتصادياً، وعسكرياً، وثقافياً) أمام تراجع مكانة دمشق بسبب اضطرابها السياسي وتدهورها الاقتصادي^(١٤) ما جعل المعاصرين لهذه الفترة يطلقون على حلب اسم "الشام" لأنها تحولت لمركز الثقل في بلاد الشام، في حين كان هذا المصطلح قد أطلق على دمشق قبل ذلك، ولم يلبث أن عاد يطلق عليها في القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي^(١٥).

ثانياً: تجمع القبائل العربية من بدو وحضر حول إمارة بني مرداس العربية واهتمام الأمراء المرداسيين بالأدب العربي، ما شكل حركة ثقافية عربية علمية وأدبية نشطة في شمال الشام^(١٦).

ثالثاً: ظهور أكثر من إمارة عربية صغيرة اهتمت بالأدب العربي في كور حلب مثل إمارة بني منقذ^(١٧) في شيزر، وإمارة بني قشير^(١٨) في قلعة جعبر^(١٩) تدعمها إمارة عربية في الموصل هي إمارة بني عقيل^(٢٠)، مما جعل الشمال الشامي، والجزيرة الفراتية، والموصل، تشكل عمقاً عربياً واحداً، ونطاقاً ثقافياً متصلاً، وموئلاً للعرب، في حين كانت بقية الشام والعراق آنذاك محكومة من غير العرب^(٢١).

رابعاً: ظهور أبي العلاء المعري (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) وهو قامة سامقة في الأدب والثقافة، وما أحدثه من حراك ثقافي هائل في معرة النعمان خصوصاً وشمال بلاد الشام عموماً^(٢٢)، لا سيما سيما تلك المجموعة العربية التي تحلقت حوله، ونهلت من علمه، وحفزها على طلب العلوم^(٢٣)، إضافة إلى استفادتها من العلاقات العلمية الواسعة لأبي العلاء مع العديد من علماء عصره، ورسائله المتبادلة معهم، وقيام الكثير منهم بزيارته في المعرة مما أتاح لأهل المعرة وشمال بلاد

-
- لعبيبي، دار السويدي، أبو ظبي، ٢٠٠٦، ص ٧٦-٧٧، ٨٣-٨٤، ٨٠، ٨٦، ٨٨، ١٠١.
١٤. انظر عن أوضاع دمشق السياسية والاقتصادية: ابن القلانسي، حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)، تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣م، ص ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٥؛ العظمي، تاريخ حلب، ص ٢٤٧-٢٤٦؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص ٥٩، ص ٣٧٦-٣٧٥.
١٥. العظمي، تاريخ حلب، ص ٣٥٠؛ سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي (ت ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، مرآة الزمان، تحقيق قاسم يزبك، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٨٤، ص ٣٨٥.
١٦. ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٢٧١، ٢٨٠-٢٨٢، ج ٢، ص ٣١-٤٢.
١٧. انظر عنها: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ١٨٢، ٥٢٧.
١٨. انظر عنها: ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ (١٣ج)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج ١١، ص ٣٣٤.
١٩. جعبر: قلعة في وادي الفرات، تقع ضمن منطقة مركز محافظة الرقة في الجمهورية العربية السورية. انظر: العماد طلاس (مشرف)، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ج ١، ص ٦٧٦.
٢٠. انظر عنها: العماد الأصفهاني، محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، تحقيق محمد طعاني، دار حمادة للدراسات والنشر، إربد، ٢٠١١م، ص ٣١٢-٣١٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١٢٥.
٢١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٤٥٣-٤٥٩، ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٩-٢٥.
٢٢. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٨٦٢-٨٦٣.
٢٣. المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٦٤-٨٦٥.

الشام السماع على الكثير منهم علوماً مختلفة^(٢٤).

خامساً: تعرض شمال الشام والجزيرة الفراتية والموصل لهجوم قبائل الغز التركية^(٢٥)، ثم تقدم الدولة السلجوقية للسيطرة على المنطقة، وتدميرها للإمارات العربية في حلب والموصل، وقيام حكم تركي فيها بدلاً من العربي^(٢٦)، ودخول قبائل الترك لتنافس القبائل العربية في المنطقة^(٢٧)، مما حفز علماء المنطقة من العرب للتأريخ للمنطقة وشمال الشام خصوصاً حفظاً لآرائهم، وتأكيداً — فيما يظهر — على وجود العرب فيها، وانتماء المنطقة لهم.

سادساً: تعرض شمال بلاد الشام خصوصاً، والشام عموماً، للغزو الفرنجي الصليبي الاستيطاني سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، وتأسيسهم إمارتي الرها وأنطاكية في شمال بلاد الشام، وتوسعهما لتشمل الكثير من مدن وقرى شمال بلاد الشام، وتهديدهم لحلب نفسها، ثم قيام حركة الجهاد الإسلامي ضدهم^(٢٨)، مما كان عاملاً حاسماً في اهتمام علماء شمال الشام بالتأريخ، وتصنيفهم للعديد من المصنفات فيه.

في ظل هذه الظروف، ولجميع تلك الأسباب ظهرت في منطقة شمال بلاد الشام سلسلة من التواريخ، فقد جُلِّها — كما أسلفنا — وبقيت بقايا منها في بطون كتب أخرى نقلت عنها، فحفظت لنا جزءاً جيداً منها، ومعرفة مقبولة عنها، غير أن سوء حظ تلك الكتب، رافقه سوء حظ لمؤلفيها إذ فقدت معظم تراجمهم من كتاب بغية الطلب لابن العديم الذي وصلتنا منه مجلدات تحوي حروفاً محدودة، وفقد باقيه، ففقدنا بذلك أيضاً معرفة كاشفة دقيقة عن أولئك المؤرخين.

وضمن السياق ذاته قام ابن زريق بتصنيف كتاب في التاريخ، وهو من تلك المجموعة المعرّية المنتمية لشمال بلاد الشام التي أشرنا إليها سالفاً، وهو المؤرخ الشامي الذي لم تهتم به الدراسات الحديثة عن تأريخ التاريخ في بلاد الشام، فلا توجد — حسب علمي — دراسة مستقلة عنه، بل ولم يتطرق إليه من صنفوا في التراث الإسلامي عموماً أو التاريخي خصوصاً من مثل: سزكين، وبروكلمان، وخلت الموسوعة الإسلامية من مادة عنه.

اسمه ونسبه وولادته:

ولد أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف بن سعيد بن يحيى التتوخي المعري

٢٤. ابن العديم، بغية الطلب، ج٢، ص٨٧٦، ٨٧٨، ٨٨٣، ٨٨٥، ٨٩١، ٩٠٠.

٢٥. العظمي، تاريخ حلب، ص٣٤٦ وما بعدها؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص٢٢٢-٢٢٤، ٢٥٣-٢٥٤، ٢٧٠-٢٧١، ٢٨٠-٢٩٥؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج٣، ص١٢٩٨-١٣٠٠؛ زبدة الحلب، ج١، ص٢٩٤-٢٩٧، ج٢، ص٩-١٥؛ شاعر مصطفى، دخول الترك الغز إلى بلاد الشام، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٤م، ص٢٤٢ وما بعدها.

٢٦. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص١٩٥؛ العظمي، تاريخ حلب، ص٣٥٣؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص١٠٠ وما بعدها.

٢٧. ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص٢٩، ٢٧٥، ٢٧٩.

٢٨. انظر عن الحملة الفرنجية الصليبية الأولى ورد الفعل عليها: ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص٢١٨، ٢٢٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٧٢؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص١٣٠.

المشهور بابن زريق في مَعَرَّة النعمان في ١٨ شوال سنة ٤٤٢هـ/١٤ آذار ١٠٥١م^(٢٩) في أسرة عربية تنوخية تنتسب إلى عدي بن السَّاطع التتوخي^(٣٠)، وتُعدُّ إحدى بيوتات الرئاسة والشرف والعلم الستة الكبرى المسيطرة على معرة النعمان^(٣١).

نشأ يحيى في أسرة علمية مثقفة حيث أنَّ والده علي (ت في حدود ٤٧٠هـ/١٠٧٧م) كان أحد الأدباء، ورواة الأخبار، وأحد تلاميذ أبي العلاء المعري^(٣٢)، وكان شاعراً فاضلاً كما وصفه العماد الأصفهاني^(٣٣)، وأورد له مقطوعة من شعره^(٣٤).

وانعكست ثقافة علي على رغبته بتعليم أبنائه، وهو الأمر الواضح من قيامه بإدخال ابنه يحيى على أبي العلاء المعري ليسمع منه شعره وعلمه، وهو بعد لم يبلغ السابعة من عمره^(٣٥).
أسرته:

أما فيما يتعلق بأسرته — خلا والده — فقد أوردت المصادر وجود إخوة له كانوا جميعاً من الأدباء والشعراء، ورواة الأخبار، وحملة العلم، وكان أبرز أولئك الأخوة شقيقه أحمد، أبو الفضل، وكان من المحدثين، ورواة الأخبار، وممن يقرضون الشعر^(٣٦)، والذي يظهر من أخباره أنه كان أكبر من يحيى بسنوات عديدة، وربما يكون أكبر إخوته عمراً، ويدل على هذا الأمر تتلمذه على أبي العلاء المعري، وروايته عنه سبعة أجزاء حديثية مما رواه عن شيوخه^(٣٧)، ما يدل على أنه كان كبيراً مميزاً أثناء حياة أبي العلاء على عكس شقيقه يحيى الذي دخل عليه صغيراً في أواخر حياته، ويدل أيضاً على كثرة تردد أحمد على أبي العلاء لكثرة مروياته عنه، وقد نقل ابن العديم ثلاثة أحاديث عن أحمد بن علي عن أبي العلاء المعري عن شيوخه^(٣٨)، والظاهر أنها جميعاً ضمن الأجزاء الحديثية السبعة التي رواها عن أبي العلاء عن شيوخه، وربما يكون قد نقل عنه أكثر من ذلك غير أنها وقعت في المفقود من كتاب بغية الطلب لابن العديم الذي

٢٩. السلفي، أبو طاهر أحمد بن محمد (ت ٥٧٦هـ/١١٧٩م)، معجم السفر، تحقيق عبد الله البارودي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٤٤٧؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٦؛ ابن نقطة، محمد بن عبد الغني البغدادي (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م)، تكملة الإكمال ٦ ج، تحقيق عبد القيوم عبد رب النبي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٨هـ، ج ٥، ص ٥٩٦.

٣٠. ابن العديم، بغية الطلب، ج ١، ص ٥٦٥.

٣١. عن بيوتات الرئاسة في المعرة وهي: بنو سليمان، بنو أبي حصين، بنو المهذب، بنو زريق، بنو الحواري، بنو المهنا، انظر: ابن العديم، بغية الطلب، ج ١، ص ٥٦٤-٥٦٥؛ العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، ج ٤، قسم الشام، تحقيق شكري فيصل، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٩م، ج ٢، ص ١١-٢٢.

٣٢. السلفي، معجم السفر، ص ٤٤٧؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٨٦٨.

٣٣. العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج ٢، ص ٨٦.

٣٤. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٦.

٣٥. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٨٦٤.

٣٦. العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج ٢، ص ٥١.

٣٧. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٨٦٨.

٣٨. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣٠، ج ٥، ص ٢٢٩٦، ج ٩، ص ٤٢٩٠.

يشكل أكثر من ثلثي الكتاب، ومما يؤسف له فقدان تراجم آل زريق (علي وأبنائه وخصوصاً أحمد ويحيى) من كتاب بغية الطلب.

وأورد ابن العديم لأحمد قصيدة في رثاء محمد بن المهذب (ت ٤٦٥هـ/١٠٧٢م) وجدها في كتاب مخصص لمراثي بني المهذب المعريين، سماه "جزء في مراثي بني المهذب" والجدير بالملاحظة هنا أن بني المهذب أقرباء آل زريق، وكلاهما من بيوتات المعرة، والقصيدة طويلة تدل على متانة العلاقة، وقوتها بين آل المهذب وآل زريق، ومطلعها^(٣٩): [الكامل]

أبني المَهْذَبَ وجدكم وجدي به
ومصابكم هذا الجليل مصابي
وكذلك أورد له العماد الأصفهاني مرثية في شكر بن أبي المجد المعري (ت ٤٩٠هـ/١٠٩٧م) وهو من بني سليمان أسرة أبي العلاء، وأحد بيوتات المعرة، ومطلعها^(٤٠): [خفيف]

ما لذا الدهر صرْفُه لا يَغْبُ
كل يوم يروغنا منه خَطْبُ
وكذلك يظهر أنه صنف تعليقاً في التاريخ نقل منه ابن العديم تاريخ ولادة أبي العلاء المعري، وذكره ابن العديم بقوله: "قرأت بخط أحمد بن علي بن عبد اللطيف المعري"^(٤١)، والراجح لدي أن هذا التعليق كان أحد المصادر الرئيسة ليحيى في كتابه التاريخ، وهو ما سنناقشه في مصادر يحيى في كتابه.

والظاهر أن أحمد توفي في حدود سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م أو بعدها بقليل حيث لا ترد له إشارات بعدها، وكانت آخر إشارة مؤرخة له هي رثاؤه لشكر المعري — السالف الذكر — سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م، ولا يظهر له خبر بعدها، وخصوصاً أن المعرة قد سقطت بيد الفرنجة الصليبيين سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م^(٤٢)، وهرب من بقي من أبناء بيوتاتها وسكانها إلى مناطق متعددة من مدن الشام، وكان آل زريق ممن هرب منها إلى دمشق^(٤٣)، ولم يظهر أحمد فيها، ولا ترجم له ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق، فربما يكون ممن قتل في اقتحام الفرنجة للمعرة أو توفي قبله بقليل.

وذكر ابن العديم وجود شقيق آخر ليحيى هو أثير الدين أبو منصور محمد، ولم يذكره فيما بين أيدينا من البقية سوى في إطار روايته لخبر عن الشاعر أسعد البليغ المعري أحد معاصري أبي العلاء المعري^(٤٤). ولم نجد له أي خبر سوى ذلك، وذكر ابن عساكر شقيقاً آخر ليحيى ذكره بكنيته أبو اليمن، ولم يقدم لنا أي معلومات عنه سوى أنه فيما يظهر أكثر شهرة من يحيى لكون ابن عساكر عندما ترجم ليحيى قال عنه "أخو أبو اليمن"^(٤٥)، ولكنه للأسف لم يترجم له في تاريخه، فربما لوفاته في المعرة قبل سقوطها بيد الفرنجة الصليبيين، وبالتالي لم يدخل دمشق،

٣٩. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ١٠٠٠-١٠٠١.

٤٠. العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج ٢، ص ٥١.

٤١. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٨٦٦.

٤٢. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٢٢١؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٤٢-١٤٣.

٤٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٦.

٤٤. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٥٧٧.

٤٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٦.

لذلك لم يترجم له ابن عساكر، ولكن شهرته العلمية جعلت ابن عساكر ينسب يحيى إليه. وأخيراً يبقى الخبر المشكل الذي أورده ابن القلانسي، والذي ينصُّ على وجود أخ رابع ليحيى هو رضي الدين أبو المجد مرشد بن علي بن عبد اللطيف المعري المتوفى سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م في مدينة حماة^(٤٦)، وكان على حد وصف ابن القلانسي له: "من الرجال الأسداء الكفاة فيما يستنهض فيه في الأيام الأتابكية، وكذلك في الأيام النورية، وكان مع ذلك موصوفاً بالخيرية، وسلامة الطبع، مستمراً في ذلك على منهاج أسرته"^(٤٧)، مما يدل على أنه أحد رجالات الإدارة الكبار في حماة في أيام الزنكيين، غير أن تأخر تاريخ وفاته يدفع الباحث إلى الشك في أنه شقيق ليحيى، فربما يكون حفيداً لعلي، وسقط من نسخة تاريخ دمشق لابن القلانسي اسم أبيه.

غير أن هذه الترجمة من ابن القلانسي لتؤكد السمعة الحسنة لأسرة علي خاصة ولبن زريق عامة سواء في الإدارة أو الثقافة، أو في أخلاقهم العامة.

ومن ثم نخلص إلى أن يحيى ولد ونشأ في أسرة رئاسة ميسورة الحال اعتنت بالعلم، وخصوصاً الأدب والتاريخ عناية خاصة، وذلك لتأهيل أفرادها ثقافياً لاستمرار زعامتها في المعرة، وأن هذا الأمر انعكس على الاهتمام المبكر من أسرة يحيى لتعليمه وتنقيفه، ويبدو أن هذه الرئاسة دفعت يحيى لعدم مغادرة المعرة لطلب العلم في مناطق أخرى.

أما عن أبنائه فلم تقدم لنا المصادر التي بين أيدينا معلومات سوى عن ابن واحد له هو زين الدين سالم بن يحيى، أبو علي (ت بعد ٥٨٢هـ/١١٨٦م) الذي لا نعرف عنه سوى أنه كان في سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م شيخاً، وأنه فقيه، ويروي أخباراً أدبية حيث اعتمد عليه عبد القاهر بن علوي بن المهنأ المعري (ت في حدود ٦٠٠هـ/١٢٠٣م) في كتابه نزهة الناظر وروضة الخاطر — هو في عداد المفقود الآن — في رواية بعض القصائد الشعرية، ويستفاد من روايته ما يدل على ارتفاع سنه، فيبدو أنه من مواليد بدايات القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي^(٤٨).

نشأته وشيوخه ومكانته:

عاش يحيى في مدينة معرة النعمان معظم حياته، ولا يوجد لدينا ما يدل على انتقاله منها سوى بعد سقوطها بيد الفرنجة الصليبيين سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م حيث انتقل للعيش في مدينة دمشق حتى وفاته بها، ولعل ما يؤكد عدم انتقاله من المعرة حتى سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م هو أن جميع شيوخه الذين استطعنا حصرهم من أهل المعرة، والظاهر أن أهم شيوخه: والده علي، وشقيقه أحمد^(٤٩)، وأبو العلاء المعري، ومحمد بن المهذب بن أبي حامد المعري (ت ٤٦٥هـ/١٠٧٢م) الذي روى عنه

٤٦. ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٥٤٠.

٤٧. المصدر نفسه، ص ٥٤٠.

٤٨. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٩، ص ٤١٧٥-٤١٧٦.

٤٩. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٤١٥٦.

جزءاً حديثاً مكوناً من أربعين حديثاً يسندها إلى الصحابي أنس بن مالك^(٥٠). ويبدو أن بقاء يحيى في المعرفة دفعه للاهتمام بالأدب والشعر والتاريخ أكثر من اهتمامه بالعلوم الأخرى، ويظهر هذا الأمر جلياً بوجود نسخة بخطه من تاريخ سعيد بن البطريق (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) المسمى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، وأطلع ابن العديم على تلك النسخة، ونقل عنها^(٥١). ويدل أيضاً على اهتمامه الكبير بالتاريخ واشتغاله بالاعتناء به، وصفه من قبل أبي المعالي محمد بن يحيى القرشي خال ابن عساكر (ت ٥٣٧هـ/١١٤٢م)^(٥٢): "هذا الشيخ تأريخ الشام"^(٥٣) وقال عنه السلفي: "كان حفظة للتواريخ وأخبار العرب وسير الملوك"^(٥٤)، ووصفه ابن عساكر بقوله: "شيخاً له عناية بالأخبار، ويحفظ منها طرفاً صالحاً"^(٥٥)، ووصفه عمر بن محمد العليمي المشهور بابن حوائج كش الحافظ (ت ٥٧٤هـ/١١٧٨م) بقوله: "وكان عالماً بالتاريخ"^(٥٦) في حين لم يذكره ابن العديم إلا وأضاف له صفة "المؤرخ" مما يدل على اشتغاله بهذه العلم وخبرته به^(٥٧).

أما عن توثيقه وأخلاقه، فلم تكن المصادر بتبيان دقيق لهذا الأمر، غير أن السلفي، وهو الحافظ الكبير، وأحد علماء الجرح والتعديل في عصره قال عن يحيى: "كان يتحرى الصدق، وكان يذكر بالصالح"^(٥٨) مما يؤكد أنه كان صادقاً فيما ينقله، وأنه كان على مستوى أخلاقي جيد.

ولا نعرف شيئاً تقريباً عن حياته في المعرفة غير أن سقوطها بيد الفرنجة الصليبيين في سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م دفعت يحيى لمغادرتها نحو دمشق مع أسرته حيث استقر بها، وتعرف إلى بعض علمائها، وذلك يعود إما لاعتكافه على تدوين مشاهداته في كتابه التاريخ عن الحملة الفرنجية الصليبية الأولى وما تلاها من أحداث حتى وفاته، وإما لتفرغه لبث علومه الأدبية، والتاريخية على أهل دمشق، وخصوصاً أنه كان قد اشتهر في بلده بعلمه بالتاريخ، وبلغ سناً كبيرة، وربما جعلته هجرته يركز على ضمان استمرار رئاسة أسرته، وتدبير أمور معيشته ومعيشتهم في مكان هجرتهم الجديد، وقضائه جزءاً كبيراً من وقته في تتبع أخبار بلده المعرفة، وأخبار المهاجرين منها إلى دمشق، وتدوين تلك الأخبار، وبالتالي فإن حياته في دمشق تركزت

٥٠. السلفي، معجم السفر، ص ٤٤٧؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٦؛ ابن نقطة، تكملة الإكمال، ج ٥، ص ٥٩٦.

٥١. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٩٥٥.

٥٢. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، معجم الشيوخ ٣، ج، تحقيق وفاء تقي الدين، دار البشائر، دمشق، ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ١٠٧٧.

٥٣. السلفي، معجم السفر، ص ٤٤٧.

٥٤. المصدر نفسه، ص ٤٤٧.

٥٥. تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٦.

٥٦. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٧، ص ٣٣٥٧.

٥٧. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٩٩، ج ٤، ص ١٩٥١.

٥٨. معجم السفر، ص ٤٤٧.

على تدوين مشاهداته، وإكمال كتابه في التاريخ، وبث علومه الأدبية والتاريخية على أهل دمشق والوافدين عليها؛ لذلك فإن تلاميذه الذين نقلوا علمه من بعده كانوا كلهم من أهل دمشق، والوافدين عليها، وبقي على هذه الطريقة حتى وفاته بدمشق.

تلاميذه:

لم تذكر المصادر التي بين أيدينا تلاميذ يحيى باستقصاء كامل، ولعل من استطعنا إحصاءه من تلاميذه هم أربعة:

١- غيث بن علي الصوري الدمشقي المعروف بابن الأرمنازي الكاتب (ت ٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، وهو محدث ومؤرخ، قرين ليحيى من ناحية العمر، فهو مولود في سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥٢م، وجمع تاريخاً لصور، واعتنى بأخبار العلماء والأمراء^(٥٩)، لهذا وجد في يحيى مورداً مهماً عن شمال بلاد الشام، وقد روى أخباراً من تاريخ يحيى ابن زريق، وكانت تلك المرويات إحدى مصادر ابن عساكر فيما اعتمده من روايات عن يحيى ابن زريق^(٦٠).

٢- أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد السلمي المعروف بابن صابر (ت ٥١١هـ/ ١١٧م)، وهو محدث دمشقي اعتنى بالتاريخ^(٦١).

٣- الحافظ أحمد بن محمد، أبو طاهر السلفي (ت ٥٧٦هـ/ ١١٧٩م)، وقد أخرج له في معجم شيوخه^(٦٢)، وكان أحد مصادر ابن العديم فيما اعتمده من روايات عن ابن زريق^(٦٣).

٤- الحافظ ابن عساكر، نص في ترجمته ليحيى ابن زريق أنه سمع منه، وذلك بقوله: "وسمعته يذكر أنه دخل على أبي العلاء بن سليمان وهو صغير، وسمع منه بيتين من شعره، وأنه يروي الأربعين حديثاً التي كان يرويها محمد بن همام، عن أبي هذبة، عن أنس عن أبي صالح محمد بن المهذب، ووعدي بإخراجها فلم يتفق، وذكر أن مولده في ثامن عشر شوال سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة بمعرة النعمان"^(٦٤) وهو النص الذي يؤكد سماع ابن عساكر منه، غير أنه لم يتفق له العودة له، وإكمال سماعه عليه، والراجح أن عدم اتفاق هذه العودة هو لوفاة يحيى ابن زريق بعد هذا اللقاء الأول مع ابن عساكر، ولذلك كان سماع ابن عساكر عنه سماعاً محدوداً.

وفاته:

لم تذكر المصادر تأريخ وفاة ليحيى غير أن سماع السلفي منه يدل على أنه كان حياً في سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م، وهي السنة التي زار بها السلفي دمشق^(٦٥)، ولم ترد عنه أي إشارة بعدها،

٥٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٤٨، ص ١٢٤-١٢٥، ج ٦٤، ص ٣٤٦.

٦٠. المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٢٢، ج ٣٦، ص ٤٧٩-٤٨٠، ج ٤١، ص ٢٩١، ج ٦٤، ص ٣٤٧.

٦١. المصدر نفسه، ج ٣٤، ص ١٥٧-١٥٨.

٦٢. السلفي، معجم السفر، ص ٤٤٧.

٦٣. ابن العديم، بغية الطلب، ج ١٠، ص ٤٥٧٥.

٦٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٦.

٦٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢٠٨.

فربما توفي في هذه السنة أو بعدها بقليل في حدود سنة ٥١٠هـ/١١١٦م، والذي يؤكد هذه المسألة أن تلميذه غيث الصوري توفي في سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م^(٦٦). وتلميذه الثاني عبد الرحمن بن أحمد السلمي المشهور بأبي محمد بن صابر توفي سنة ٥١١هـ/١١١٧م^(٦٧)، مما يعزز الترجيح بوفاته بين ٥٠٩-٥١٠هـ/١١١٥-١١١٦م، ويؤكد أنه أيضاً قلة سماع ابن عساكر منه لأنه وعده بإخراج الأربعين حديثاً وقراءتها عليه، غير أنه توفي قبل عودة ابن عساكر إليه مما يدعم فرضية وفاته في سنة ٥٠٩-٥١٠هـ/١١١٥-١١١٦م. ويعزز أيضاً أن أحد رواة تاريخه عند ابن العديم هو عمر بن محمد العلمي المشهور بابن حوائج كش الحافظ ولد سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م وتوفي سنة ٥٧٤هـ/١١٧٧م^(٦٨)، وهو ينص على أنه لم يسمع من ابن زريق بل قدّم نقله عن كتابه بصيغة "وجدت بخط أبي الحسن يحيى"^(٦٩). وقد أشار كاهن تلميذاً إلى وفاته سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م^(٧٠)، وأشار شاكراً مصطفى إلى وفاته بعد سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م من غير تحديد سنة، وذلك اعتماداً على أن آخر نقل عن تاريخه كان في سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م^(٧١)، وهو عين النص الذي اعتمده كاهن، في حين ذهب طلال الدعجاني إلى وفاته في نهاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي من غير دليل^(٧٢)، وهو أمر بعيد عن الواقع. وذهب زعرور في مقدمته لتاريخ العظيمة إلى احتمال وفاته في العقد الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي^(٧٣)، وهي آراء تبعد عن تحديد السنة الصحيحة حسب الأدلة التي أوردناها سابقاً ورجحنا بها وفاته سنة ٥٠٩-٥١٠هـ/١١١٥-١١١٦م.

تاريخ يحيى ابن زريق:

لم تورد المصادر التي بين أيدينا أي مصنف ليحيى ابن زريق سوى كتابه في التاريخ، الذي لم يورد اسمه أي مصدر من المصادر التي أطلعنا عليها، وأول من ذكر قيامه بتصنيف كتاب في التاريخ هو ابن عساكر دون أن يسميه، فقال: "وجمع تاريخاً على ترتيب السنين، ذكر فيه مبدأ دولة الترك، وخروج الفرنج - خذلهم الله - واستيلاءهم على بلاد الشام"^(٧٤)، وبالتالي أبهم ابن عساكر

٦٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٨، ص١٢٤-١٢٥.

٦٧. المصدر نفسه، ج٣٤، ص١٥٨.

٦٨. المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، المقفى الكبير، ج٨، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ج٨، ص١٧٠-٧١١ ملحق بالفهارس ضمن زيادات على الجزء الرابع من المقفى وجدت في مخطوط جديد.

٦٩. ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص١٩٧٣.

٧٠. Cahen, La syrie Du Nord, P.40.

٧١. مدرسة الشام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده، ص٣٩٨.

٧٢. موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق ج٣، وزارة التعليم العالي، المدينة المنورة، ٢٠٠٤م، ج٣، ص١٥٧.

٧٣. العظيمة، تاريخ حلب، مقدمة المحقق، ص١٦.

٧٤. تاريخ دمشق، ج٦٤، ص٣٤٦.

اسمه واكتفى بالتعليق على نطاقه الزمني.

في حين اقتصر ابن العديم على النقل عنه بطرق متعددة دون أن يشير إلى تصنيفه لكتاب أو إلى اسم الكتاب، وذلك بقوله: "نقلت من خط"^(٧٥)، فربما فعل ما فعله ابن عساكر الذي نقل عنه بطريقتين مختلفتين من غير الإشارة إلى الكتاب أو اسمه، وأشار إلى الكتاب في ترجمته ليحيى ابن زريق، ومن ثم فإن ابن العديم أشار إلى تصنيفه لكتاب في التاريخ واسمه على الراجح في ترجمته التي أفردها لابن زريق، وهي تقع ضمن الجزء الضائع والمفقود من كتاب (بغية الطلب). وأشار إليه ابن شداد، ونقل عنه، وأكد أنه صنف كتاباً في التاريخ من غير أن يسميه، أو يعطي أية تفاصيل عنه، في قوله: "قال الشيخ أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد التتوخي المعري في تاريخه"^(٧٦) مما يؤكد أنه صنف مصنفاً في التاريخ.

وما عدا هؤلاء الثلاثة لم يذكر تاريخ ابن زريق أي مصدر من مصادر التراث الإسلامي التي اطلعنا عليها، سواء كتب الفهارس والشيوخ، أو التراجم والطبقات، أو التواريخ العامة و الخاصة. أما المؤرخون المحدثون، فأول من ذكره، وأشار إليه — ولو على نحو بسيط ومحدود — كاهن في مقالته عن شمال سوريا، وأشار إلى تصنيفه كتاباً "تتول فيه الغزو التركي ثم الغزو الإفرنجي"^(٧٧)، وأشار إلى أن ابن عساكر، وابن العديم، وابن شداد نقلوا منه^(٧٨). وأشار إليه شاكراً مصطفى باقتضاب شديد، وأكد على أهميته لأنه "يروى المشاهدات الشخصية والأخبار المباشرة عن فترة انقلابية من أخطر فترات التاريخ في الشام"^(٧٩)، وذكره طلال الدعجاني اعتماداً على ما جاء عند ابن عساكر^(٨٠).

ومن ثم فإن الذي نخلص إليه مما سبق أن ابن زريق صنف كتاباً في التاريخ، لم نستطع الوصول إلى اسمه الدقيق الذي أطلقه عليه مصنفه، وربما كان ابن زريق لم يطلق عليه اسماً خاصاً، أو أطلق عليه اسم التاريخ مثلما فعل الكثير من المؤرخين السابقين له أو اللاحقين عليه، أو أنه كان ذيلاً على كتاب سابق، والراجح لديّ أنه كان ذيلاً على كتاب التاريخ لعلي بن المهذب المعري (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) الذي ذيل عليه حفيد ابنه أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب، ويبدو أن كتاب علي بن المهذب كان الأساس المعرفي التاريخي في شمال بلاد الشام، ويدل على ذلك اعتناء معظم مناطق الشمال الشامي به، واحتفاظهم بنسخ منه^(٨١).

٧٥. بغية الطلب، ج ٢، ص ٦٩٩.

٧٦. ابن شداد، محمد بن علي الحلبي (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ١، ق ٢، تحقيق يحيى عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م، ص ٤٦٢.

٧٧. Cahen, La syrie du Nord, p.40؛ ونقل المادة عنه السيد الباز العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص ١٩٣.

٧٨. Cahen, L syrie du Nord, p.40

٧٩. مدرسة الشام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده، ص ٣٩٨-٣٩٩. وانظر: شاكراً مصطفى، التاريخ والمؤرخون العرب، ج ٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م، ج ١، ص ٣٥٧.

٨٠. موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق، ج ٣، ص ١٥٧.

٨١. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١١، ص ٤٢٦؛ إحسان عباس، شذرات من كتب مفقودة، ص ٩٣، ١٠١.

والذي يدفعنا إلى هذا الترجيح تداخل السنوات التي حصرناها لتاريخ يحيى ابن زريق مع السنوات التي يؤرخ لها همّام بن الفضل^(٨٢)، إضافة إلى أنهما معريان، وكلاهما متعاصران، فربما قام كل منهما بتصنيف ذيل لتاريخ علي بن المهذب.

طريقة ترتيب ابن زريق لكتابه ونطاقه الزمني والجغرافي:

قطع ابن عساكر أن ابن زريق صنف كتابه على طريقة الحوليات المرتبة على السنين^(٨٣)، وهو الأمر الذي تؤكدُه النقول الباقية عنه في المصادر^(٨٤)، حيث يذكر أحداثه حسب تسلسلها الزمني، فيقوم بترتيب حوادثه على السنوات، وإذا كان هناك حدث مهم يستدعي الاستطراد يفرد له عنواناً ويبدأ بأصل حدوثه حتى يصل إلى ما يريده، مثلاً فعل بحصار السلطان ألب أرسلان السلجوقي (٤٥٧-٤٦٥هـ/١٠٦٤-١٠٧٢م) ثاني سلاطين السلاجقة لحلب في سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م، فقال: "ذكر أخبار السلطان الشهيد المعظم ألب أرسلان أبي شجاع محمد بن داود، برهان أمير المؤمنين، نضر الله وجهه، والسبب في وصوله إلى الشام"^(٨٥)، وتحدث تحت هذا العنوان عن بدايات ألب أرسلان، ثم وصوله للسلطنة بعد عمه طغرل بك (ت ٤٥٧هـ/١٠٦٤م) وأهم أحداث سلطنته، ثم توجهه إلى حلب محاصراً لها. فهو يسوق أخبار كتابه على طريقة الحوليات سنة بعد سنة إلا إن حدث حادث مهم يحتاج معه لإفراد عنوان لتبيان أصوله حتى وصوله إلى الحدث الذي يريده، ثم يقوم بتذييل نهاية كل سنة من سنوات تاريخه بوفيات المشاهير الذين توفوا فيها^(٨٦).

أما عن النطاق الزمني والجغرافي لكتابه، فلم تتطرق له المصادر بشكل واضح بل تركته من غير تحديد مما دفع المؤرخين المحدثين الذين تناولوا ابن زريق وكتابه بالدراسة إلى محاولة استنتاج تلك المصادر للوصول إلى تحديد زمني أو جغرافي له، فأشار كاهن إلى أنه تناول الحقبة من ٤٦٢هـ/١٠٧٠م إلى ٥٠٨هـ/١١١٤م بناءً على النقول الواردة عنه في المصادر التي تمكن من رصدها^(٨٧)، في حين جعلها شاكر مصطفى من سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٤م إلى سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م^(٨٨) بناءً على ما تمكن من رصده من إشارات إليه في المصادر، ولم يشر زعرور إلى زمن محدد للكتاب غير أنه صنفه ضمن كتب التاريخ العام، لا الخاص^(٨٩).

٨٢. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٦٩٩.

٨٣. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٦.

٨٤. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٦٩٩؛ ابن شداد، الأعلام، ج ١، ق ١، ص ٤٦٢.

٨٥. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٩٧٣.

٨٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤٨٠، ج ١٣، ص ١٢٢، ج ٤١، ص ٢٩١.

٨٧. Cahen, La syrie du Nord, p40؛ في حين لم يشر السيد الباز العريني في كتابه مؤرخو الحروب الصليبية، ص ١٩٣، إلى زمن محدد للكتاب.

٨٨. مدرسة الشام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده، ص ٣٩٩.

٨٩. العظمي، تاريخ حلب، مقدمة التحقيق، ص ١٦.

إن هذا الاضطراب عند المؤرخين المحدثين يرتب على الباحث المدقق العودة إلى المصادر واستنطاقها، ومحاولة التعرف من خلالها إلى النطاق الزمني والجغرافي للكتاب، ولعل أهم نص في هذا السياق، هو نص ابن عساكر حيث قال: "وجمع تاريخاً على ترتيب السنين، ذكر فيه مبدأ دولة الترك، وخروج الفرنج — خذلهم الله — واستيلاءهم على بلاد الشام"^(٩٠)، مما يعني أن ابن عساكر لم يحدد بداية تاريخ ابن زريق ولا نهايته، بل حدد أنه تضمن ذكر مبدأ دولة الترك (السلجقة) وهو هنا يشير إلى ابتداء دولة السلجقة في بلاد الشام، لا دولة السلجقة مطلقاً. ثم تضمن عنواناً بارزاً ثانياً وهو خروج الفرنج، وسيطرتهم على أجزاء من بلاد الشام، وتأسيسهم للإمارات الفرنجية الصليبية أي أنه وصل في تأريخه لسنوات ٤٩٠هـ - ٤٩٣هـ / ١٠٩٧ - ١١٠٠م، وهي بداية الحملة الفرنجية الصليبية الأولى وفعاليتها في شمال الشام، ثم انتقلها إلى القدس. وبناءً على هذا النص فهم كاهن — كما أسلفنا — أنه بدأ من سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م، علماً بأن ابن عساكر لا ينص على ذلك بل إن النص السابق ليؤكد على عكس ما أراد كاهن أنه يتحدث عن زمن سابق لسنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م لأنه قال: "ذكر فيه مبدأ دولة الترك" إذاً لم تكن بدايته سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م وهي سنة دخول السلجقة إلى شمال بلاد الشام، بل قبلها، ثم جاء ضمن الكتاب مبدأ دولة السلجقة، ويؤكد الشواهد الأخرى التي سنذكرها لاحقاً، كما ذكر: "وخروج الفرنج" مما يعني أنه شملهم أيضاً بتاريخه، ولا يعني أن تاريخه انتهى بظهورهم.

إن تتبع النصوص المنقولة عن تاريخ ابن زريق التي تمكنا من الاطلاع عليها تظهر أنه أرخ لسنوات امتدت بأقدم نقل عنه تمكنا من رصده لسنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م^(٩١) وينتهي آخر نقل عند سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م^(٩٢)، غير أن كاهن وشاكر مصطفى أشارا إلى أن آخر نقل عنه هو سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م نقلاً عن مخطوط تاريخ ابن الفرات الذي لم نتمكن من الاطلاع عليه^(٩٣).

أما عن النطاق الجغرافي للكتاب، فالواضح أن النقول التي لدينا لتؤكد اقتضار الكتاب على شمال بلاد الشام، وإذا اضطرر أن يخرج أحياناً عن هذا النطاق الجغرافي لربط الأحداث أو إكمالها، وعليه فإن الكتاب يُعد من التواريخ الخاصة المختصة بمنطقة محددة في حقبة زمنية محددة، ولعل أهم ما يدل عليه أن جميع النقول التي أوردها ابن عساكر عن ابن زريق تختص بأمور شمال الشام وعلمائه^(٩٤)، وهو الأمر الذي يوضح مقصود أبي المعالي محمد بن يحيى القرشي عندما وصفه بـ "تاريخ الشام" بمعنى شمال بلاد الشام حيث كان يطلق مصطلح الشام على حلب وشمال بلاد الشام — كما وضعنا سابقاً — وإلاً إن قصد الشام بمفهومها كل بلاد الشام

٩٠. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٦.

٩١. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٦٩.

٩٢. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٤١، ص ٢٩١.

٩٣. Cahen, La syried du Nord, p40؛ شاكر مصطفى، مدرسة الشام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده، ص ٣٩٩.

٩٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١١، ص ٣٥، ص ١٣، ص ١٢٢، ص ٣٤٧، ج ٣٦، ص ٤٧٩ - ٤٨٠، ج ٤١، ص ٢٩١.

لكان هناك من علماء دمشق المختصين بالتاريخ من هو أعلم منه.

بقايا كتاب ابن زريق:

يعد كتاب ابن زريق من المفقود من تراثنا العربي الإسلامي حالياً غير أن بعض المصادر اللاحقة عليه نقلت عنه وهي تاريخ دمشق لابن عساكر، وبغية الطلب لابن العديم، والأعلاق الخطيرة لابن شداد، وبلغت تلك النقول ثلاثة عشر نصاً، تراوحت بين نص صغير مرتبط بوفاة أحد العلماء، أو نصوص طويلة تتجاوز أربع صفحات، تضمنت الحديث عن شمال الشام، وحوادثه السياسية، والعسكرية، ومجالس علمائه الأدبية، ووفياتهم.

ومن تتبع تلك النصوص تبين أنها شملت سنوات ٣٩٥هـ/١٠٠٥م^(٩٥)، ٤٠٦هـ/١٠١٥م^(٩٦)، ٤٥٦هـ/١٠٦٤م^(٩٧)، ٤٥٧هـ/١٠٦٥م^(٩٨)، ٤٦٢هـ/١٠٧٠م^(٩٩)، ٤٧٢هـ/١٠٧٩م^(١٠٠)، ٤٨٨هـ/١٠٩٥م^(١٠١)، ٤٨٩هـ/١٠٩٦م^(١٠٢)، ٤٩٩هـ/١١٠٥م^(١٠٣)، ٥٠٠هـ/١١٠٦م^(١٠٤)، ٥٠٣هـ/١١٠٩م^(١٠٥)، ٥٠٥هـ/١١١١م^(١٠٦)، إضافة إلى نصوص أدبية لم تؤرخ في المصادر التي نقلت عنه غير أن جميعها يعود لفترة ٤٥٠-٤٦٥هـ/١٠٥٨-١٠٧٢م^(١٠٧)، إضافة إلى نص نقله من ابن البطريق يتعلق بكتب اليونان، والصراع اليهودي النصراني قديماً في إطار استطراده في موضوع لم نستطع تحديده^(١٠٨)، هذا ولم ندرس سنة ٥٠٨هـ/١١١٤م التي رصدها كاهن وشاكر مصطفى اعتماداً على مخطوط تاريخ ابن الفرات لعدم قدرتنا على الاطلاع على المخطوطة.

وحفظ لنا ابن عساكر، وابن العديم، وابن شداد بعض نصوص كتاب التاريخ لابن زريق من خلال عدة طرق، فابن عساكر نقل خمسة نصوص من التاريخ من خلال طريقتين:

الأولى - كتاب التاريخ لابن زريق بخطه، وأشار إليه مرة واحدة في ترجمة تنش بن ألب أرسلان (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، وصرح بنقله عنه حيث قال: "قرأت بخط أبي الحسن يحيى بن علي

٩٥. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٦٩٩-٧٠٠.

٩٦. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٠٠.

٩٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١٣، ص ١٢٢؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج ٥، ص ٢٤٢٧-٢٤٢٨.

٩٨. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٩٧٣.

٩٩. المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٧٤.

١٠٠. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١١، ص ٣٥.

١٠١. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٢.

١٠٢. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٧، ص ٣٣٥٧.

١٠٣. المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٣٥٧.

١٠٤. المصدر نفسه، ج ٧، ص ٣٣٥٨.

١٠٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤٧٩-٤٨٠.

١٠٦. المصدر نفسه، ج ٤١، ص ٢٩١.

١٠٧. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٩، ص ٤١٥٦؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٧.

١٠٨. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٤، ص ١٩٥١.

بن عبد اللطيف بن زريق^(١٠٩). وأكد في ترجمته ليحيى ابن زريق عندما تحدث عن الكتاب^(١١٠)، مما يدل على اطلاعه على نسخة من تاريخ ابن زريق بخط ابن زريق نفسه. الثانية – الاطلاع على الكتاب من رواية غيث بن علي الصوري (ت ٥٠٩هـ/ ١١١٥م) تلميذ ابن زريق الذي علق على بعض النصوص من كتاب ابن زريق في تاريخه لدمشق، ونقل من طريقه أربعة نصوص أشار إليها بصيغة "قرأت بخط غيث بن علي مما علقه عن أبي الحسن التتوخي"^(١١١).

أما ابن العديم، والذي نقل عنه سبعة نصوص، فجاءت نقوله عن تاريخ ابن زريق من خلال أربعة طرق:

الأولى – كتاب التاريخ لابن زريق مباشرة، وذلك في خبرين حيث قدم ذلك بقوله: "ونقلت من خط يحيى بن علي بن عبد اللطيف بن زريق المؤرخ"^(١١٢) مما يؤكد وجود نسخة من الكتاب أو جزء منه لدى ابن العديم، ومنها نقل بعض أخباره.

الثانية – من خلال كتاب لعمر بن محمد العلمي المشهور بابن حوائج كش (ت ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م) صرح العلمي بنقله من كتاب ابن زريق، واعتمد هذا الطريق في خبرين، نقلهما بصيغة "قرأت بخط عمر بن محمد العلمي المعروف بابن حوائج كش الحافظ... وجدت بخط أبي الحسن يحيى بن علي بن عبد اللطيف بن زريق"^(١١٣).

الثالثة – من خلال تاريخ دمشق لابن عساكر، ونقل عنه خبراً واحداً، فقال: "أخبرنا أبو نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازي كتابة قال: أخبرنا أبو القاسم علي بن الحسن قال: قرأت بخط أبي الفرج غيث بن علي الأرمنازي مما علقه عن أبي الحسن يحيى بن علي بن عبد اللطيف بن زريق المعري"^(١١٤).

الرابعة: من خلال الحافظ السلفي، ونقل عن طريقه خبرين^(١١٥).

ويجدر هنا التأكيد على أن العلماء يفضلون الرواية المسندة حتى للكتب على الوجداء، وهي وجدت في بعض الكتب، أو بخط أحد العلماء، ويجعلونها من الطرق غير القوية لإسناد الخبر، لذلك إن امتلاك ابن عساكر، وابن العديم نسخة من تاريخ ابن زريق لا يجعلهما يفضلان النقل عنها بوجود طرق لهم مسموعة عن شيوخهم إلى الكتاب^(١١٦).

١٠٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١١، ص ٣٥.

١١٠. المصدر نفسه، ج ٦٤، ص ٣٤٦.

١١١. المصدر نفسه، ج ١٣، ص ١٢٢، ج ٣٦، ص ٤٧٩-٤٨٠، ج ٤١، ص ٢٩١، ج ٦٤، ص ٣٤٧.

١١٢. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٦٩٩، ج ٤، ص ١٩٥١.

١١٣. المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٧٣، ج ٧، ص ٣٣٥٧.

١١٤. المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٤٢٧-٢٤٢٨.

١١٥. المصدر نفسه، ج ٩، ص ٤١٥٦، ج ١٠، ص ٤٥٧٥.

١١٦. انظر حول السماع والوجداء: ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)، اختصار علوم الحديث، الشركة

الجزائرية اللبنانية، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص ٧١-٧٢.

في حين أن ابن شداد نقل عنه نصاً واحداً من خلال كتابه مباشرة^(١١٧)، وأشار كاهن وشاكر مصطفى إلى نقل المؤرخ الحلبي يحيى بن أبي طيء (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)^(١١٨) عن ابن زريق استناداً إلى النقول الموجودة عنه في مخطوط ابن الفرات التي لم يتمكن من الاطلاع عليه^(١١٩). وشملت تلك السنوات الحديث عن أحمد بن الحسين التغلبي المشهور بالأصفر (ت بعد ٤٠٦هـ/١٠١٥م) الذي ظهر في شمال بلاد الشام داعياً للجهاد ضد البيزنطيين، ومعاركه معهم، وانتصاراته، ثم هزيمته، واعتقاله من قبل حكام حلب حفاظاً على علاقاتهم مع بيزنطة، وإيقاعه في سجن حلب، وتهديد البيزنطيين بإخراجه من السجن في حال لم يوافقوا على إبرام هدن مع حكام حلب، واستمراره بالسجن حتى سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م عندما سيطر الفاطميون على حلب^(١٢٠). في حين تناول خبر وصول السلطان ألب أرسلان إلى حلب محاصراً لها في سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م مستطرداً قبلها بالحديث عن وفاة عمه السلطان طغرل بك سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م، ووصول ألب أرسلان للسلطنة بعد صراع مع منافسيه، ثم تفاصيل حصار حلب حتى عقد الاتفاق بين السلطان وحاكم حلب المرداسي محمود بن نصر (ت ٤٦٧هـ/١٠٧٤م)، ثم توجه ألب أرسلان بعد وصول أنباء خروج الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع (Romanes) (٤٦٠-٤٦٣هـ/١٠٦٧-١٠٧١م) نحو ديار الإسلام إلى ملاذكرد حيث واجهه بها، وحقق في المعركة واحدة من أعظم الانتصارات الإسلامية، وتحدث عن أسر الإمبراطور، وغنائم المعركة^(١٢١)، ثم تناول في أحداث سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م تاريخ دخول تنتش بن ألب أرسلان (٤٧١-٤٨٨هـ/١٠٧٨-١٠٩٥م) أول سلاطين الشام من السلاجقة لدمشق باليوم والشهر والسنة، وذلك - فيما نرجح - في إطار حديثه عن حصار تنتش لحلب، ومحاولته السيطرة عليها، فلما فشل في ذلك توجه إلى دمشق، وسيطر عليها مؤسساً دولة سلاجقة الشام، وهي ما سماه ابن عساكر بداية دولة الترك^(١٢٢).

وتضمن حديثه في سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م قيام الأمير يوسف بن آبق مقطع منبج^(١٢٣) التابعة لحلب بالنزول من إقطاعه مستأماً لحاكم حلب رضوان بن تنتش (ت ٥٩٧هـ/١١١٣م)، وقيام

١١٧. ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٢.

١١٨. لؤي بواعنه، يحيى بن أبي طيء مؤرخاً، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، المجلد ٣، العدد ٢، ٢٠٠٩م، ص ٣٩-٦٣.

١١٩. Cahen, La syriedu Nord, p.40؛ شاكر مصطفى، مدرسة الشام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده، ص ٣٩٨.

١٢٠. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ٦٩٩-٧٠٠.

١٢١. المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٧٣-١٧٦.

١٢٢. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ١١، ص ٣٥.

١٢٣. منبج: مدينة في هضبة حلب الشرقية، تتبع محافظة حلب، انظر: العماد طلاس (مشرف)، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ج ٥، ص ٣٤٨.

رضوان بقتله بعد استسلامه في مدينة حلب^(١٢٤). وتناولت النقول عنه حول حوادث سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م، و ٤٩٩هـ/١١٠٥م، و ٥٠٠هـ/١١٠٦م تولي خلف بن ملاعب (قتل ٤٩٩هـ/١١٠٥م) لمدينة أفاعية^(١٢٥) بناءً على طلب من أهلها، ثم المؤامرة التي دبرها الإسماعيلية النزارية على خلف، وقيامهم باغتياله، والسيطرة على أفاعية في سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م، وتفاصيل تلك الحادثة، ثم قيام أبناء خلف بإطماع الأمير الفرنجي الصليبي تنكرد (Tancrede) (ت ٥٠٦هـ/١١١٢م) بسهولة السيطرة عليها، وهو الأمر الذي أدى لسيطرة تنكرد (طنكلي كما سماه ابن زريق) على أفاعية في سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م.

وتضمنت بقية الأخبار والسنوات المنقولة عنه تواريخ وفاة وولادة بعض علماء شمال بلاد الشام، وشعرائه، وبعض قصصهم الأدبية، ومقطوعات شعرية لهم، وبلغ اهتمامه واحتفاؤه بعلماء وأدباء وشعراء شمال بلاد الشام أن رصد وفيات بعضهم في اليمن^(١٢٦).

موارد ابن زريق في تاريخه:

إنَّ فقدان تاريخ ابن زريق يجعل فكرة مناقشة وتبيان موارده محفوفة بالكثير من المحاذير لأنَّ بقايا الكتاب لا تفي في أحيان كثيرة بإعطاء فكرة كافية عن تلك الموارد، وخصوصاً أن من ينقل عنه لا ينقل أسماء موارده في كثير من النقول، غير أننا سنحاول تبين موارده من خلال بقايا معلومات كتابه، وخصوصاً أنه يؤرخ لبعض الحوادث لم يعاصرها، بل ولم يكن مولوداً في حينها، ولعل أهم تلك الموارد الشفوية، وأبرز من نقل عنه: والده، وشقيقه أحمد الذي أسند إليه أخباراً، وخصوصاً فيما يتعلق بقصص الأدباء والشعراء^(١٢٧)، والفقيه أبو جعفر محمد بن أحمد ابن البخاري (ت بعد ٤٨٦هـ/١٠٨٩م) رسول ناصر الدولة ابن حمدان المتغلب على مصر (قتل ٤٦٥هـ/١٠٧٣م) والمرافق للسلطان ألب أرسلان في حصاره لها، حيث نقل عنه تفاصيل مجريات الحصار من جهة معسكر السلطان ألب أرسلان^(١٢٨)، ومن رواته أيضاً الأمير أبو الحسن علي بن منقذ (ت ٤٧٥هـ/١٠٨٢م) مؤسس إمارة بني منقذ في شيزر^(١٢٩) حيث روى عنه بعض أخبار الحصار^(١٣٠)، إضافة إلى تاريخ سعيد بن البطريق، وهو المصدر الوحيد المكتوب الذي

١٢٤. ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٢.

١٢٥. أفاعية: مدينة أثرية دارة الآن، تقع في جبل الزاوية، ناحية قلعة المضيق، منطقة الغاب في محافظة حماة السورية.

انظر: العماد طلاس (مشرف)، المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، ج ٢، ص ١١٨.

١٢٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤٨٠.

١٢٧. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٩، ص ٤١٥٦.

١٢٨. المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٩٧٤-١٩٧٥.

١٢٩. انظر عنه: العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج ١، ص ٥٩؛ البستان الجامع، ص ٣٠٩.

١٣٠. ابن العديم، بغية الطلب ج ٤، ص ١٩٧٦.

استخدمه فيما بين أيدينا من النقول عنه^(١٣١).

واعتمد ابن زريق في معظم أخباره على مشاهداته الشخصية، وما تردد لسمعه وهو في دمشق أو المعرفة من أخبار للأحداث التي عاصرها من مثل خبر مقتل يوسف بن أبق مقطع منبج أو خبر تولي خلف بن ملاعب لأفامية، ثم خبر مقتله وسيطرة الفرنجة الصليبيين على أفامية.

منهجه:

ذكرنا - فيما سبق - أن يحيى ابن زريق استخدم طريقة الحوليات منهجاً لترتيب كتابه بناءً على ما قرره ابن عساكر، وبناءً على البقايا الموجودة من كتابه في المصادر الأخرى، والواضح أيضاً أنه يهتم بترتيب أخباره داخل السنوات بناءً على الأشهر، ويهتم بتبيان تاريخ اليوم من الشهر للحادثة، ولعل من الأمثلة على هذا الأمر "قال الشيخ يحيى بن علي... في تاريخه وذكر حوادث سنة ثمان وثمانين وأربعمائة"^(١٣٢)، وقوله: "وقدم إلى أفامية يعني خلف بن ملاعب من مصر سنة تسع وثمانين وأربعمائة"^(١٣٣)، وقوله: "ثم قتل في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين"^(١٣٤) وقوله: "فعاد في رمضان نزل عليها فأقام إلى آخر السنة وفتحها في الثالث عشر من محرم سنة خمسمائة"^(١٣٥) وقوله: "دخل تاج الدولة يعني دمشق لأحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين"^(١٣٦).

كل تلك النصوص تؤكد ترتيب كتابه على السنين، وأنه اهتم اهتماماً واضحاً بتبيان اليوم والشهر لكل حدث من أحداثه. وتدل بقايا معلومات كتابه أنه لم يلتزم بالمنهج الحولي التزاماً صارماً، إذ إنه حاول الحفاظ على وحدة الموضوع داخل النظام الحولي إذا كانت الحوادث متقاربة في سنتين متتابعتين، وفصل الأحداث عن بعضها يؤدي إلى فقدان الموضوع ترابطه، وهذا الأمر واضحٌ ففي حديثه عن الأصفر التغلبي مثلاً، قال: "وفي سنة خمس وتسعين ظهر رجل غازي"، ثم بعد حديثه عنه وعن معاركه ضمن سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٥م أكمل الحديث لوحدة الموضوع "وتوسط الحال بينهما على أن يأتي إلى حلب على أن يكون الأصفر في القلعة بحلب معتقلاً أبداً، وحمله إليه في شعبان سنة سبع وتسعين، فقيده لؤلؤ واعتقله، ولم يزل في القلعة إلى أن حصلت حلب للمغاربة في سنة ست وأربعمائة"^(١٣٧) بمعنى أنه جمع أخبار الأصفر التي شملت ثلاث سنوات في سنة ظهوره حتى لا يفتت وحدة الموضوع، وتقريظه على أكثر من سنة مما قد يؤدي إلى عدم القدرة على فهمه.

واستخدم هذا الأمر أيضاً في قضية مقتل خلف بن ملاعب ثم سيطرة الفرنجة الصليبيين على

١٣١. ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص١٩٥١.

١٣٢. ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج١، ق١، ص٤٦٢.

١٣٣. ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص٣٣٥٧.

١٣٤. المصدر نفسه، ج٧، ص٣٣٥٧.

١٣٥. المصدر نفسه، ج٧، ص٣٣٥٨.

١٣٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١١، ص٣٥.

١٣٧. ابن العديم، بغية الطلب، ج٢، ص٦٩٩-٧٠٠.

أفامية، فقال: "ثم قتل في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين قتله قوم من حلب... وسلم الله مُصبح [ابن خلف بن ملاعب] ووصل إلى شيزر، وأقام عند ابن منقذ مدة وأطلقه، ودخل طنكلي [تتكد] إلى أفامية عقيب هذا الحادث طمعاً في الحصن ومعه أخ لهذا ابن القنح من سرمين... فذكروا لطنكلي قلة القوات بها، فعاد في رمضان نزل عليها فأقام إلى آخر السنة وفتحها في الثالث عشر من محرم سنة خمسمائة" (١٣٨)، واستمر في سياق الأحداث للحفاظ على وحدة الموضوع، وعدم تفريقه، في سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م والسنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م.

ويلاحظ أيضاً اهتمام ابن زريق بالتقويم الشمسي السرياني، وذلك ناتج على الأرجح من استعماله في شمال بلاد الشام في التقويم الزراعي القائم على الشمس، ولما كان ابن زريق من أسرة رؤساء ومُلك أراضٍ في معرة النعمان، فكان لزاماً عليه معرفة التقويم الشمسي السرياني، وهذا الأمر واضح من قوله: "وقطع الفرات في النصف من شهر ربيع الآخر من السنة، وهو اليوم التاسع عشر من كانون الثاني" (١٣٩).

وركز ابن زريق على جغرافية الأحداث، ومحاولة التعريف المختصر بها، ووصف لحال القرى التي تتم بها الأحداث، ومتابعة تحركات الجيوش جغرافياً بدقة كبيرة، ويظهر هذا الأمر جلياً في حديثه عن حركة الأصفر التغلبي حيث قال: "فانتهى إلى الماخس طرس أن الأصفر ساكن في الجزيرة في ضيعة تعرف بكفر عزور من عمل سروج، وهي ضيعة كبيرة ولها سور" (١٤٠) وقوله عن حركة السلطان ألب أرسلان لحصار حلب "ونزل السلطان المعظم نقرة بني أسد إلى أرض قنشرين إلى الفنيديق" (١٤١).

وتميز ابن زريق باهتمامه الكبير بتعليل حوادثه، والبحث عن أسباب الحدث، وعوامل النصر والهزيمة، لذلك نجده يهتم كثيراً بإبراز أسباب الحدث، ولعل أبرز مثال على هذه القضية هو حديثه عن قدوم السلطان ألب أرسلان إلى حلب موضحاً أن السبب لم يكن حرباً، وإنما كان حصاره لحلب في سياق استجابته لطلب ناصر الدولة ابن حمدان المتغلب على مصر الفاطمية أن ينجده، ويعد بتسليم مصر لألب أرسلان، وضمها إلى الدولة السلجوقية، غير أنه كان لزاماً عليه المرور من حلب، فكان لا بد أن يخضعها لسيطرته، وهو ما تم (١٤٢)، وكذلك تعليله لأسباب سيطرة خلف بن ملاعب على أفامية، وأسباب مقتله، ثم أسباب سقوطها بسهولة في يد تتكد الفرنجي (١٤٣).

واقصر في معالجته لحوادثه على شمال بلاد الشام، فلم يخرج عنها إلا استطراداً وبما يفيد

١٣٨. ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص ٣٣٥٧-٣٣٥٨.

١٣٩. المصدر نفسه، ج٤، ص ١٩٧٤.

١٤٠. المصدر نفسه، ج٢، ص ٦٩٩-٧٠٠.

١٤١. المصدر نفسه، ج٤، ص ١٩٧٥.

١٤٢. المصدر نفسه، ج٤، ص ١٩٧٤.

١٤٣. المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٣٥٧-٣٣٥٨.

خبره عن شمال بلاد الشام، لذلك نستطيع القول أن تاريخه هو تاريخ خاص لشمال بلاد الشام، ولم يخرج عنها، وعليه فإن منهجه التزم بالحديث عن مناطق شمال بلاد الشام.

واعتمد في منهجه الاهتمام بالألقاب ومناصب من يتحدث عنهم، فقال عن ألب أرسلان "السلطان الشهيد المعظم ألب أرسلان، برهان أمير المؤمنين" (١٤٤) وذكر تتش بلقبه "تاج الدولة" (١٤٥)، وآخر أمراء الموصل من بني عقيل "شرف الدولة مسلم بن قریش" (١٤٦)، وقوله عن رضوان بن تتش صاحب حلب "فخر الملك" (١٤٧)، وأشار إلى مناصب بعض شخصياته مثل "الوزير" (١٤٨)، و "الكاتب" (١٤٩)، و "السلطان الأعظم" (١٥٠)، و "أمير الجيوش بالشام" (١٥١)، "الفقيه" (١٥٢)، "الخطيب" (١٥٣)، "القائم بمذهب الباطنية" (١٥٤).

أما فيما يتعلق بالوفيات فاتبع منهج التراجم المعروف والمستقر قبله، والقائم على ذكر الاسم كاملاً، والنسب، والكنية، واللقب، والأصل الجغرافي للمترجم له، ثم نماذج من شعره، وتاريخ ولادته، ووفاته، ومكانها الجغرافي. ومن الأمثلة عليها ذكره لوفاة علي بن جعفر المعري، فقال: "أبو الحسن علي بن جعفر بن الحسن بن محمد بن توين المعري توفي وقد نيف على الستين، توفي سنة خمس وخمسمائة بمصر" (١٥٥)، وقوله: "إن أبا المواهب قتلته الحرّة باليمن يقال سنة ثلاث وخمس مائة، ومولده سنة سبع أو ثمان وأربعين وأربعمائة" (١٥٦).

مبوله:

إن الحكم العام على ميول واتجاهات ابن زريق من خلال بقايا كتابه لا يمكن التسليم بها، غير أننا يمكن أن نصل إلى صورة جزئية عن ميوله من خلال تلك البقايا، ولعلنا يجب أن نؤكد هنا على أن ابن زريق مسلم سني في محيط مختلط في شمال الشام من السنة، والشيعه الأثنى عشرية، والشيعه الإسماعيلية الأمرية، والشيعه الإسماعيلية النزارية، والمسيحيين، واليهود، ويبدو أن هذا

١٤٤. ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص١٩٧٣.

١٤٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١١، ص٣٥.

١٤٦. ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص١٩٧٤.

١٤٧. ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج١، ق٢، ص٤٦٢.

١٤٨. ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص١٩٧٦، ج١٠، ص٤٥٧٥.

١٤٩. المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٧٥.

١٥٠. المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٧٣.

١٥١. المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٧٤.

١٥٢. المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٧٤، ج٩، ص٤١٥٦.

١٥٣. المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٧٤.

١٥٤. المصدر نفسه، ج٧، ص٣٣٥٧.

١٥٥. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤١، ص٢٩١.

١٥٦. المصدر نفسه، ج٣٦، ص٤٨٠. وانظر نماذج من الشعر الذي ذكره لتراجم وفياته: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٤، ص٣٤٧؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج٩، ص٤١٥٦، ج١٠، ص٤٥٧٥.

الخليط أوجد نوعاً من المعرفة بالآخر جعلته ليس حاداً تجاه المخالفين له في المذهب أو الدين. ولعل أول تلك الميول تظهر جلية في نظريته للسلاجقة تلك النظرة الإيجابية التي تميز بها حيث ترك انطباعاتاً جيداً عنهم، وخصوصاً عن السلاطين العظام، وبالأخص السلطان ألب أرسلان ثاني السلاطين السلاجقة العظام الذي وصفه بالعدل وحسن السيرة، وبضبط جيوشه بحيث لم يقوموا بأي اعتداء على الناس والممتلكات أثناء حصارهم لحلب^(١٥٧)، ثم وصف ألب أرسلان "بالشهيد" وختم قوله عنه "نصر الله وجهه" في تبني واضح لرؤية الدولة السلجوقية له^(١٥٨).

وما حاول ترسيخه من حسن السيرة والعدل حول ألب أرسلان، أسبغ على ابنه تتش أول سلاطين سلاجقة الشام حيث وصف سيطرته على دمشق وحكمه لها بقوله: "وحسنت السيرة بدمشق في أيام تاج الدولة"^(١٥٩)، فظهر وكأنه يدمج حكم الفاطميين والأتراك قبل تتش بسوء السيرة. وما يدل أيضاً على انحيازه للسلاجقة، وتعاطفه معهم أفراداً عنواناً لقيام دولتهم في بلاد الشام إدراكاً منه إلى أن قدوم السلاجقة سيغير الأوضاع كافة في بلاد الشام، كما أن قدوم السلاجقة كان يعني في نظره انتصار السنة، وعودتهم لحكم بلاد الشام بعد فترة حكم طويلة للشيعة الإسماعيلية.

أما عن الفاطميين فيلاحظ أنه سماهم بداية بالمغاربة نسبة لجند الخلافة الفاطمية من البربر المغاربة^(١٦٠)، وذكرهم أيضاً باسم المصريين^(١٦١) دون أي إشارة لاسم الخليفة الفاطمي أو لقبه ما يدل على انسياقه في تيار الكتاب والمؤرخين والفقهاء السنة في معاداتهم للخلافة الفاطمية وعدم اعترافهم بها.

وتظهر معرفته بفرق الشيعة في زمنه، وهو يقف موقفاً عدائياً واضحاً تجاه الإسماعيلية النزارية التي يسميها بالباطنية، وتبدو خبرته واضحة بها من خلال معرفته برجال دعوتها^(١٦٢)، في حين يسمي الإمامية الأثنا عشرية بالشيعة، ويجعله اسم علم لهم دون غيرهم من فرق الشيعة الأخرى^(١٦٣).

أما الفرنجة الصليبيون، فالظاهر أنه أدرك خطورة حملتهم الأولى على بلاد الشام عموماً، وشمال الشام خصوصاً، لذلك أفرد لخروجهم وتأسيسهم لإماراتهم الفرنجية الصليبية في شمال بلاد الشام بداية [الرها، انطاكية] ثم في القدس، وطرابلس باباً خاصاً في كتابه^(١٦٤)، في محاولة منه — فيما يبدو — للتنبيه على خطورة حملتهم وسيطرتهم على بلاد الشام عموماً، كما أدرك أنها حملة فرنجية غربية، لا بيزنطية شرقية، وسماهم "الفرنج"^(١٦٥)، و "إفرنج"^(١٦٦) مما يدل على معرفة

١٥٧. ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص١٩٧٦.

١٥٨. المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٧٣.

١٥٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١١، ص٣٥.

١٦٠. ابن العديم، بغية الطلب، ج٢، ص٧٠٠.

١٦١. المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٧٤، ج٧، ص٣٣٥٧.

١٦٢. المصدر نفسه، ج٧، ص٣٣٥٧.

١٦٣. المصدر نفسه، ج٩، ص٤١٥٦.

١٦٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٤، ص٣٤٦.

١٦٥. المصدر نفسه، ج٦٤، ص٣٤٦.

جيدة بهم، كما عرف قادتهم، وكان من أوائل من استخدم الصياغة بالعربية المحرفة للأسماء الفرنجية، وكانت هذه المحاولة من المحاولات العربية الإسلامية المبكرة الأولى من مثل "تتكرد" الذي سماه "طنكلي"^(١٦٧)، ثم تمنى زوالهم واندثار دولتهم من خلال قوله "خذلهم الله"^(١٦٨).

أهميته:

تتبع أهمية بقايا المعلومات كتاب التاريخ لابن زريق في أنه أرخ لشمال بلاد الشام لفترة تزيد على القرن معتمداً على مرويات محلية لشمال بلاد الشام فيما لم يعاصره، ولمشاهداته الشخصية، وما وصل إليه من أخبار عن حوادث شمال بلاد الشام من أشخاص شاركوا بها. وتأتي أهميته أيضاً من أن كتاب ابن زريق يُعدُّ من أوائل من تحدث عن الفرنج في تاريخه بل ربما يكون المؤرخ المسلم الثاني بعد الجبريني (ت ٥٠٤هـ/١١١٠م) الذي تحدث عنهم، بل وامتاز كتابه بأنه أفرد لهم باباً خاصاً بخروجهم إلى ديار الإسلام، وبلاد الشام خاصة، ثم تأسيس إماراتهم فيها، وهو الأمر الذي لم يسبقه — فيما أطلعت عليه — إليه أحد من المؤرخين العرب المسلمين السابقين أو المعاصرين له، وامتاز بأنه كان شاهد عيان لحملتهم الأولى، وأجبر على الفرار من مدينته المعرة أمام هجومهم، ومن ثمّ تمتاز روايته بالمشاهدة، والمعرفة الدقيقة بمجريات الحوادث، ولعل من أهم ما تميز به كتابه معرفته بكنه الحركة الفرنجية الصليبية، وأنها ليست ببيزنطية.

وامتاز كتابه أيضاً بأنه من أوائل الشاميين الذين أرخوا للدولة السلجوقية، ووقفوا منها موقفاً إيجابياً، وأفرد لها عنواناً خاصاً في كتابه، واعتمد في التأريخ لهم على مشاهداته الشخصية، ورواة من المشاركين في أحداث دولتهم، وانفرد بذكر خطط ألب أرسلان لغزو مصر، وإسقاط الخلافة الفاطمية في الشام، وأن تلك الخطط تبدلت لما علم بخروج رومانوس الرابع إمبراطور بيزنطة إلى ملاذكرد، وأوكل مهمة السيطرة على دمشق ومصر إلى محمود المرادسي مع بعض القادة السلاجقة، وأنفرد أيضاً بتبعية طرابلس لألب أرسلان.

وحفظ كتاب ابن زريق التصور الشمالي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حول مفهوم الشام ليعني حلب وشمال بلاد الشام، ولذلك فإن ابن زريق يُعدُّ من أواخر من احتفظ بهذا المفهوم الذي سرعان ما تحول في منتصف القرن السادس الهجري، منتصف القرن الثاني عشر الميلادي إلى دمشق.

واحتوى كتاب ابن زريق على معلومات قيمة عن علماء وأدباء وشعراء شمال بلاد الشام لولاه فقدت وضاعت أخبارهم، كما احتفظ بمعلومات ذات قيمة عالية عن العديد من التراتيب الإدارية وخصوصاً معرفته الجيدة بتراتب البيزنطيين، والسلاجقة، وكذلك معرفته بأوضاع الفرنجة.

١٦٦. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٧، ص ٣٣٥٧.

١٦٧. ابن العديم، بغية الطلب، ج ٧، ص ٣٣٥٨.

١٦٨. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٣٤٦.

The Historian IbnZurayq(442-509 AH / 1051-1115 AD) and His Book of History. A Study of Primary Historical Texts of Bilad al-Sham at the Time of the First Crusade (490-492 AH / 1097-1099 AD)

Issam Mustafa Abdel Hadi Okleh *

ABSTRACT

This study aims to research the personality of the Syrian historian YahyaIbnZurayq and his lost book of history, showing his personal, familial and cultural circumstances, to find out about his book by collecting the surviving excerpts found in later sources, and to study it to see its chronological and geographical scope, the issues he discussed, his resources and method, and the value of the book for studies of Bilad al-Sham in general and of the Frankish Crusaders in particular, and the additional information it provides for the history of the Frankish Crusaders in Bilad al-Sham.

KEYWORDS: IbnZurayq, Crusades, history of Bilad al-Sham.

* Department of History, Faculty of Arts, The University of Jordan.
Received on 29/4/2014 and accepted for publication on 19/6/2014.